

الباب الأول

الفصل الأول

أفريقية

مقدمة :

أطلق العرب اسم أفريقية على الأقطار الواقعة شمال هذه القارة دون مصر ، وكانوا يقسمونها إلى ثلاثة أقسام : المغرب الأقصى ويمتد من المحيط الأطلسي إلى مدينة تلمسان ، الثاني المغرب الأدنى ويمتد من مدينة وهران إلى حدود الجزائر شرقا ، الثالث أفريقية وتمتد من حدود الجزائر غربا إلى حدود مصر الغربية شرقا

فتوحات العرب في أفريقية :

سارت الجيوش العربية بقيادة عمرو بن العاص بعد أن تم له فتح مصر إلى غزو برقة في سنة ٢١ هـ وكانت تخضع لحكم الروم وحارب سكان تلك البلاد وتغلب عليهم ، وتصلح الفريقان على أن تدفع برقة الجزية ثم تقدمت إلى طرابلس وحاصرتها نحو شهر واستولت عليها بعد أن هرب سكانها إلى سفن الروم الراسية في البحر ، وبعد ذلك بخمس سنوات أي في ٢٦ هـ في خلافة عثمان بن عفان تجدد نشاط المسلمين في تلك الأصقاع وازدادوا انعام إخضاعها والتوغل في داخلتها ،

وسار عبد الله بن سعد والى مصر إذ ذاك ومعه عقبة بن نافع الفهري على رأس قوة كبيرة لمحاربة الروم الذين اجتمعوا في جيش كبير بقيادة جرمجورى لأخراج العرب من برقة وطرابلس ، والتحم الفريقان في حروب دموية انتهت بقتل القائد الرومى وانتصار العرب وفرضت الجزية ، وأنشأ الوالى حامية في برقة وأخرى في زويلة وعاد إلى مصر يصحبه التوفيق فيما أراه

وقعت الحروب الأهلية في الخلافة العربية بعد مقتل عثمان وعمت البلاد الثورات ، فانتهر الروم تلك الفرصة واستعادوا برقة وطرابلس وساروا على خطتهم القديمة فاستعبدوا الأهالى وأثقلوا كاهلهم بشقى الضرائب وأمعنوا في السلب والنهب فاستاء الأهالى استياء شديدا ، وفضلوا حكم العرب ذلك الحكم الذى امتاز بنشر العدل والمساواة بين طبقات السكان ، والرفق بالرعية والمعاملة الحسنة وانتظروا عودتهم بفارغ الصبر

انقضت الحروب الأهلية بتأسيس الدولة الأموية واستقر الأمر والسلطان لمعاوية بن أبى سفيان فاستأنف سياسة الغزو والفتح ونشر مبادئ الإسلام ، وانتهر فرصة دعوة سكان أفريقية للعمل على خلاصهم من حكم الروم الجائر، وأرسل أحد قواده المسمى معاوية بن حديج سنة ٤٥ هـ في عشرة آلاف مقاتل لمحاربة الروم ، فتقدم بمجيشه وقاتل الروم وهزمهم ، وتقدم عبد الله بن الزبير إلى مدينة سوسة واستولى عليها ، وفتح عبد الملك بن مروان حصن جالولا ، وخضعت البلاد مرة أخرى إلى حكم العرب

ولاية عقبة بن نافع :

عين معاوية في سنة ٥١ هـ عقبة بن نافع^١ والياً على أفريقية كان

قائدا قديرا ، فخرج من دمشق ومعه عشرة آلاف مقاتل من العرب ووصل بهم إلى برقة ، ومن هناك توغل في شمال أفريقيا ، وزحف غربا حتى وصل إلى سواحل المحيط الأطلسي ، ورأى أن يبنى حصنا ليكون مركزا لحركاته الحربية فبنى مدينة القيروان ليصد منها هجمات البربر من جهة البر والروم من جهة البحر ، وفي سنة ٥٥ هـ عزم على تأديب الروم الذين كانوا يكثرون من الاغارات على حاميات العرب وأملاكهم ، فتقدم بجيشه نحو مرا كش واكتسح كل ما قابله من المدن واستولى على الحصون وهزم الروم هزيمة منكرة ، وواصل زحفه حتى وصل إلى المحيط الأطلسي ، وكان من نتائج هذه الحملة التأديبية الموقفة أن استراح العرب سنين عديدة من اقلق البربر والروم لهم باغاراتهم المتكررة وقد ظل عقبة بن نافع حاكما على أفريقيا حتى قتل في سنة ٦٥ هـ وهو يدافع عن مدينة القيروان التي هاجمتها جموع من البربر الذين اندفعوا نحوها من سهول جبال الأطلس ووديانها لالخروج العرب من بلادهم لا لظلم وقع عليهم بل لأنهم قوم اعتادوا الحرب والطعان وعدم الخضوع لرياسة منظمة مدة طويلة ، وقد دافع العرب على قلة عددهم عن حصنهم دفاع المستميت وسقط قائدهم في ساحة الوغى وسقط معه كثير من رجاله ، واستولى البربر على القيروان وارتدت البقية الباقية من العرب نحو الشرق فارتدوا إلى مصر ، وكانت أفريقيا تفلت من حكم المسلمين .

عبد الملك بن مروان واستعداده لفتح أفريقيا :

تولى عبد الملك بن مروان أمر الخلافة وتأهب لاستعادة فتح أفريقيا وجهز جيشا كبيرا وعهد بقيادته إلى زهير بن قيس . وأمره بالزحف إليها فنفذ زهير أمر الخليفة وخرج بجيشه في سنة ٦٩ هـ (٦٩٣ م) وحارب البربر وحلفاءهم من الروم

وانتصر عليهم وأجلاهم عن ولاية برقة ، ولكنه ارتكب خطأً حريبا بعد ذلك إذ فرق جنوده في أنحاء تلك البلاد الشاسعة لاتمام اخضاعها واحتفظ بفرقة صغيرة من الجند معه وانتهر الأعداء تلك الفرصة الذهبية وهاجموا قائد المسلمين وحاربوه وقتلوه وقضوا على من كان معه من الجند ، وخرجت أفريقية من حوزة المسلمين مرة أخرى

غضب عبد الملك لخبر تلك الهزيمة وفي سنة ٦٥٤ هـ (٦٩٨ م) أمر حسان ابن النعمان عامله على مصر أن يخرج إلى أفريقية ويحارب الروم وحلفاءهم من البربر . ويعمل على استعادة تلك الأقطار ، فخرج حسان وحارب الروم وحلفاءهم وانتصر عليهم واستولى على القيروان وحاصر مدينة قرطاجنة واستولى عليها وأرجع للمسلمين هيمنتهم بعد أن طرد الروم من تلك البلاد التي خضعت من برقة إلى المحيط إلى سلطان الخليفة الأموي

الكاهنة :

ظهرت امرأة في شمال أفريقية في تلك الآونة اشتهرت بالسحر وعرفت بالكاهنة . وكانت قادرة فالتف حولها البربر واعتقدوا فيها اعتقادا غريبا وخضعت لها قبيلة زناته التي انقسمت اليها ، وحثت القبائل الأخرى حذوها فازداد نفوذها وعظم شأنها . ولما آنت من نفسها القوة على مناهضة سلطان المسلمين جمعت الجيوش ورفعت راية العصيان ، وزحفت على جند العرب وهزمتهم هزيمة منكرة وطردتهم إلى برقة وأصبحت سيدة البلاد بعد نصرها المبين ، وظلت كذلك نحو خمس سنوات وفي سنة ٦٩ هـ أرسل عبد الملك جيشا لأمداد حسان فاستأنف القائد زحفه غربا لمقاتلة جيوش الكاهنة فلم تقو تلك الساحرة على إيقاف زحف جيوش

المسلمين ، وارتدت نحو الجنوب بعد أن خربت المدائن والقري وهدمت القصور وأتلفت المزارع والبساتين فتحولت المروج العامرة إلى صحراء جرداء، وقد ظنت تلك المرأة أنها بعملها هذا قد نجت من الخطر وأوقفت سير الجيوش الظافرة ، ولكنها أخطأت إذ أساءت تقدير القوة المعنوية العظيمة التي تحلى بها جند المسلمين وامتازوا بها في صدر العصور الإسلامية الأولى . كما أنها أثارت غضب البربر فاستقبلوا حسانا بالابتهاج وهرعوا إليه يقدمون فروض الطاعة والاستسلام ، وتقدم حسان بجيشه يطارد الكاهنة حتى أدركها عند جبل أوراس من جبال الأطلس وحارب قواتها وتغلب عليها وقتلها بعد معركة عنيفة، ورجع البربر إلى حظيرة حكم المسلمين بعد أن تعهدوا بإمداد جيش حسان بخمسة وعشرين ألف فارس

انتشر الاسلام بعد ذلك في شمال افريقية انتشارا سريعا واعتنقه البربر ، وفي تلك الفترة هاجر كثير من الخوارج من فارس وبلاد العرب واستوطنوا بلاد البربر ولقنوهم الاسلام على حسب مبادئهم الثورية وبثوا فيهم روح الكراهية لبني أمية وحكومتهم في دمشق ، فنشأ البربر يكرهون الأمويين وينتصرون لأهل الشيعة مما كان له أثر في الحوادث السياسية التي مرت بنا في تاريخ الدولة الفاطمية وغيرها من الدول الإسلامية التي قامت في تلك الاقطار مما سنبينه بعد

ظل حسان واليا على أفريقية حتى عزله الوليد بن عبد الملك في سنة ٨٩ هـ وعين مكانه موسى بن نصير .

ولاية موسى بن نصير :

كان نصير والد موسى من كبار رجال الدولة الأموية في زمن معاوية إذ كان صاحب الشرطة في دمشق عاصمة الأمويين ، وقد اشتهر بالوفاء والاقدام ونشأ

موسى بين أحضان والده وتربى تربية عسكرية وسياسية فنشأ قائداً قديراً وسياسياً محنكاً ، فلما أوفده الوليد بن عبد الملك والياً على أفريقية أدار تلك البلاد بحزم وهزم ، وقابل الصعوبات التى اعترضته بهمة الرجل المقدام ، إذ انتهز البربر فرصة انسحاب حسان من البلاد ورفعوا راية العصيان فى وجه الادارة الاسلامية ، فنهض موسى يعاونه أولاده ، وقمع القتن وقضى على الاضطرابات وعاقب الثوار من البربر وطرده الروم الذين دفعوهم إلى الثورة من أفريقية ، ثم صالح الزعماء وعاملهم بالحسنى ، وفرق رجاله بين القبائل المختلفة ليعلموا أهلها الاسلام ، وأخذ رهائن من قبائل مصمودة وصنهاجة وكنانة وهوارة ، وتقدم نحو طنجة وحاصرها وفتحها واعتنق أهلها الاسلام ووضع بها حامية كبيرة تحت إمرة أحد قواده الامناء من البربر وهو طارق بن زياد

التفت موسى بعد ذلك للقضاء على معاقل الروم الاخرى فى البحر الابيض المتوسط إذ كانت عشا للدسائس ، ومركزاً لتدبير الحركات الحربية والاغارات العسكرية على أملاك المسلمين ، فجهز أسطولاً لقتالهم وأرسل الحملة بقيادة ابنه عبدالله ، ونجح المسلمون فى الاستيلاء على جزيرة ميورقة ومينورقة وإيفيقية وضمها إلى الامبراطورية الاسلامية ، واتسعت أملاك موسى فى الغرب حتى أصبحت تضارع فى اتساعها أملاك الحجاج فى الشرق ، ولكنه امتاز بحسن ادارته وقيادته ، وخضعت أفريقية خضوعاً اختيارياً لحكم موسى وامتد نفوذه من حدود مصر الغربية إلى سواحل المحيط الاطلسى ما عدا مقاطعة سبتة (سوتة) التى يحكمها أمير قوطى اسمه الكنت يوليان

تمتعت أفريقية بنعمة العدل والحرية تحت حكم المسلمين واختفت من بين طبقاتها الفوارق الاجتماعية ، وأصبح البربر بفضل الاسلام اخواناً مع الغزاة من

العرب يقفون معهم على قدم المساواة لا فرق بين حاكم ومحكوم ، وتكونت من الفريقين جبهة عسكرية واحدة تتربق الفرصة لأعلاء كلمة الدين ونشر مبادئه القويمة بين الأمم المجاورة ، وكانت أقرب أمة تجاورهم في ذلك الوقت هي الأمة الأسبانية وكانت تن من حكم القوط الجائرفانتهز العرب تلك الفرصة الذهبية وقفزوا على أسبانيا وفتحوها واليك البيان

الفصل الثاني

أسبانيا

١ — القوط في اسبانيا:

عرف الفنيقيون أسبانيا قبل التاريخ الميلادي بعدة قرون واختلط تجارهم بأهلها الذين كانوا يعرفون بالاباريين ، وأقاموا في أرضها مدائن ذات أسواق تجارية ، وأنشأوا على شواطئها نزلات بحرية اشتهرت منها قادس ، وكانوا يعيشون مع قبائلها في صفاء ووداد ، وقد أثروا بحضارتهم في أهل اسبانيا إلى حد كبير فتعلم الاسبانيون منهم فنونهم ولغتهم وتخلقوا بأخلاقهم واعتنقوا مذاهبهم الدينية ، وفي القرن الخامس قبل الميلاد ازداد نفوذ القرطاجيين وورثوا أملاك الفنيقيين في البحر الابيض واحتلوا نزلاتهم في اسبانيا ، وأنشأوا نزلات جديدة منها برشلونه وقرطاجة وغيرها ، ثم حدث نزاع طويل بين القرطاجيين ورومية وقامت بينهم حروب شعواء عرفت بالحروب البونية وانتهت بفوز رومية وتخريب قرطاجة ، وانتزع الرومان أملاكها في أسبانيا وحكموها في سنة ١٣٤ قبل الميلاد فأصبحت اسبانيا من ذلك العهد ولاية رومانية تخضع وتسير على نظمها الاجتماعية وسننها القانونية

كانت حكومة رومية في أول أمرها حكومة فنية فاستطاعت أن تبسط نفوذها وترفع لواءها على ربوع أوربا وأفريقية ، وعينت الحكام والولاة على مختلف الاقطار والامصار ، وراقبتهم مراقبة دقيقة وحاسبتهم حساباً عسيراً على كل ما كان

يقع منهم من المخالفات ، وصارت الأمور في الامبراطورية الرومانية على خير منوال حتى القرن الثالث بعد الميلاد. ثم انقسمت الامبراطورية إلى قسمين: القسم الشرقي وكانت مدينة القسطنطينية عاصمة له، والقسم الغربي وظلت رومية عاصمة له ، وبعد ذلك أدركها الهرم ودخلت في دور شيخوختها بسبب انغماس أباطرتها في أنواع الترف والملاذ ، واختلت الادارة المركزية واعتلت الرأس فسرى الاضمحلال ثم الانحلال في أنحاء جسم الدولة ، وانتهزت الأمم المتبربرة التي كانت تعيش على حدودها الشمالية من الغرب والشرق تلك الفرصة الذهبية وأغارت على أطرافها وانتزعت منها أملاكها الواحدة تلو الأخرى ، فأغار الافرنج على الأقاليم التي سميت فرنسا وأقاموا لأنفسهم حكومه منظمة ، وفي سنة ٤٠٦ م اخترقت جبال البرانس بعض تلك القبائل المتبربرة ونزلت بأرض أسبانيا، واحتل السلافيون الشمال واحتل الفندال الجنوب وظلوا بها نحو نصف قرن، ثم طفت موجة أخرى من أمواج الغزو على أسبانيا ، إذ تغلب الفرنج في جنوب فرنسا على قبائل القوط الغربيين وطردهم نحو الجنوب ، فاخترقوا بدورهم البرانس ونزلوا على أسبانيا وحاربوا السلافيين وطردهم الى شمال أفريقيه ، فاستوطنوا أقاليم المغرب الأقصى وامتزجوا بأهلها وصاهروهم وتناسلوا ، وتم الأمر للقوط في أسبانيا واتخذوا مدينة طليطلة عاصمة لهم ودانت لهم البلاد وأسسوا بها حكومة قوية واعتنقوا المسيحية في سنة ٥٨١ م

(٢) حكومة القوط :

سار القوط في البلاد الأسبانية في أول عهدهم سيرة الرومان الأولى فدانت لهم البلاد وخضعت لهم الرقاب ، ولكنهم ما لبثوا أن انفصلوا في الترف والتعالي

وترفعوا عن الاختلاط بالرعية ، ونظروا للشعب نظرة ازدراء واحتقار فأنحلت
الروابط الاجتماعية في أنحاء المملكة وانقسمت البلاد الى طبقة الحكام ، وهذه
تتمتع بكل نعيم الحياة ، والى طبقة المحكومين وتلك أنت من جراء الظلم وكل
أنواع الاضطهادات السياسية والدينية ، وساد الفقر والجوع بين طبقات الشعب
بسبب الضرائب الفادحة التى فرضها عليهم الأشراف وأمراء الاقطاعيات
وكبار رجال الدين ، ومما زاد الطين بلة انقسام الامراء على أنفسهم ، فقامت المنازعات
وعمت البلاد الحروب الأهلية والفتن الداخلية ، وانقسمت الأهالى إلى أحزاب
وشيع وهجرت الصناعة والزراعة ، ووقفت حال التجارة فازدادت الحالة
الاقتصادية تهرجا

اليهود فى أسبانيا :

ولما افتقر أمراء الاقطاعيات بسبب حروبهم الفردية التفتوا إلى يهود أسبانيا
وكانوا قد استوطنوا تلك البلاد منذ زمن بعيد واثروا بفضل جدهم ونشاطهم اثناء
كثيرا ونهبوا مناجيرهم وسلبوهم نقودهم ومتاعهم ، وتدخل رجال الدين من النصارى
فى أمر دينهم وأجبروهم على التنصر فثاروا ضد هذا الظلم الصارخ فأخذت ثورتهم
بكل قسوة وسفكت دماؤهم وصودرت أملاكهم وهتكت أعراضهم

كان من نتائج هذه الفوضى السياسية والاجتماعية وذلك البؤس والاضطهاد
الشامل أن هجر البلاد الاسبانية كثيرون من أهلها نصارى ويهود وقصدوا شمال
أفريقية ليتمنعوا بمزايا الحكم الاسلامى الذى اشتهر أمره وينعموا بنعم العدل
والمساواة والتسامح الدينى وهى الصفات التى امتاز بها حكم العرب إذ ذاك

العرش القوطى قبيل الفتح العربى :

جلس على العرش القوطى فى اسبانيا فى أوائل القرن الثامن الميلادى الملك وتيزا (٧٠١ — ٧١٠ م) ويعرف بين مؤرخى العرب بالملك غيطشة وقد سار فى حكمه مسيرة رديئة ، إذ استسلم إلى نفوذ رجال الدين وتركهم يديرون البلاد ويضطهدون الرعية بكل أنواع الاضطهادات وفى أثناء حكمه هدم جميع القلاع والحصون التى كانت معاقل للأمراء وذلك رغبة منه فى التغلب على هؤلاء الأمراء عند ثوراتهم ضد العرش ، فخلت المدن والأقاليم من الحصون التى تحمى قلب المملكة عند الغزو الأجنبى ، فكان ذلك من الأمور التى عاوت الغزاة من العرب وهم يفتحون تلك الأقاليم

غضب الأهليون على الملك وتيزا فى أواخر أيامه وحرص الأمراء أفراد الشعب فتار فى وجهه مليكه ، ولما مات وتيزا ترك ولدين قاصرين فاجتمع بعض الأمراء وانتخبوا رودريك (لدرىق) وهو أحد أمراء القوط الكبار ملكا على أسبانيا ، فلم يدم له الملك غير ثمانية عشر شهرا إذ نهأت الفرص واجتمعت الأسباب لدى موسى بن نصير لفتح اسبانيا ، فلم يدع الفرصة تفلت من يديه ، وشمر عن ساعد الجد وأمر قائده القدير طارق بن زياد وكان قد عهد إليه فى قيادة الحامية بطنجة أن يغزو أسبانيا ففعل ، وكان التوفيق رائده

العوامل المباشرة التى ساعدت الفتح العربى :

أولا : انحلال الجبهة العسكرية التى كانت تدافع عن البلاد ضد الغزو الأجنبى ونشأ ذلك عن النزاع الذى قام بين الأمراء والملك رودريك بسبب اغتصابه

العرش من أولاد الملك المتوفى ، فان هؤلاء الأبناء التجثوا إلى أنصار أبيهم وتحالفوا على العصيان والثورة ، وآزرهم عنهم المسمى أوباش وكان أسقفا لطليطلة وإشبيلية وراعيا للكنيسة المسيحية فكان نفوذه كبيرا

ثانيا : حقد الكونت يوليان حاكم سبته (كيوتا) في شمال أفريقية على الملك رودريك « وكان يوليان شديد البأس وافر القوة كثير الاتباع والانصار يقبض على مفتاح الجزيرة بحكمه لسبته والمضيق » وقد نشأ هذا الحقد (أولا) بسبب اعتداء الملك رودريك على عفاف ابنة الكونت المسماة فلورندا ، وكان أبوها قد أرسلها إلى البلاط القوطي لتنشأ نشأة اجتماعية راقية وكان تلك عادة كبراء القوم في تربية أبنائهم وبناتهم (وثانيا) بسبب التنافس بين الكونت والملك إذ كان الكونت صهراً للملك المتوفى وبطبيعة الحال كان يعطف على أولاد صهره وبحقد على رودريك لاغتصابه العرش فأصبح ملكا وكان بالأمس أميراً مثله لا يزيد عنه في الجاه والبأس

أراد يوليان الانتقام من رودريك فتقرب من موسى بن نصير واختلط به بحكم الجوار وراسله وقابله ، وفي رسائله ومقابلاته عين الحاكم أفريقية مواضع الضعف من أمته . ووصف له جزيل خيراتها ووفرة غناها ، وحرضه على غزو أسبانيا ظناً منه أن العرب سيقنصرون على كسب الغنائم ومجد الفتح

ثالثا : ثبوت قدم العرب في شمال أفريقية ونجاحهم بفضل إدارة موسى الرشيدة في القضاء على عناصر الاضطراب في تلك الأصقاع والتفاف البربر حولهم ودخول جندهم في صفوف الجيوش الاسلامية ، وكانوا جنداً أشداء امتازوا بالشجاعة والإقدام والتفاني في خدمة الاسلام ونشر مبادئه ورفع لوائه بين الأمم النصرانية .

رابعاً : معرفة العرب في شمال أفريقية أحوال أسبانيا من عسكرية واجتماعية

وجغرافية معرفة تامة بسبب اختلاطهم بالأقوام الذين هاجروا إلى بلاد الغرب
طارين من أسبانيا بسبب الاضطهادات التي أشرنا إليها سابقا ، فان هؤلاء الأقوام
وبخاصة اليهود منهم تطوعوا في ركاب الجيش الفاتح فكانوا خير المرشدين والادلاء
لقواد العرب وهم يزحفون على أسبانيا وأقاليمها

الفتح

في شهر رجب سنة ٩٢ هـ ابريل سنة ٧١١ م جهز موسى بن نصير جيشا
اختلف المؤرخون في تقديره اختلافا كبيرا فتمهم من قال انه سبعة آلاف ومنهم
من قال انه اثنا عشر ألفا ، وأمر مولاه طارق بن زياد قائد الجند بطنجة أن يسير
لفتح بلاد الأندلس بعد أن اقتنع بالظروف الملائمة للفتح وذلك بعد أن خاضها
بالسرايا طوعا لأمر أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، فإنه أرسل طريف بن
مالك من جند البربر في رمضان من سنة ٩١ هـ في مائة فارس وأربعمائة راجل لغزو
بلاد الشاطئ الجنوبي من الأندلس ، فجازوا البحر في السفائن وغزوا بعض الثغور
الجنوبية بمعونة يوليان ، ونزلوا بأرض الأندلس وأصابوا سبياً لم ير موسى ولا
أصحابه مثله حسناً ، وغنموا مالا جسيماً وأمتعة كثيرة

أبحر طارق من طنججة ومر بسبته ، ومن هذه إلى الشاطئ المقابل ومعه يوليان يرشده
ونزل هو ورجاله بجزيرة صغيرة عرفت فيما بعد بالجزيرة الخضراء ، واستولى المسلمون
على جبل مجاور لها وتحصنوا فيه فسمى أولا جبل الفتح ، ثم أخذ اسم الفاتح فسمى
جبل طارق ، ويقال إن طارقاً بعد أن عبرت جنوده المضيق أحرق السفائن كي
يقطع من عساكره أمل التقهقر ، وأن يختاروا إما الفوز وإما الموت ، وهي رواية
تحتاج إلى شيء كثير من التمهيص إذ لم ترد في أقوال الثقة من المؤرخين ، ثم
انساب جند المسلمين في أرض الأندلس ، وأسرع السكونت تدمير عامل لزريقا

على تلك الأقاليم لملاقاة العرب ، ولكنه فزع عند ما رأى الغزاة وكتب إلى الملك يخبره بخبرهم ، وكان رودريك إذ ذاك مشغولا بالحرب في المقاطعات الشمالية فأمر أحد قواده بالزحف لملاقاة العدو وتمزيق شملهم ، فهزمه طارق ومضى في فتوحاته ناشرا لواء الفزع والرعب في أفئدة الأهلين المأخوذين من هجوم ما كانوا يتوقعونه ، فجمع رودريك جيشاً بالغ الرواة في ذكر عدده وزحف جنوباً لملاقاة طارق ، والتقى الجيشان على شواطئ وادي لكه بالقرب من مدينة شذونة القديمة التي بنى في محلها الآن مدينة شريش

معركة شريش الحاسمة

« على قيد فرسخين من قادس تجاه بلدة شريش على ضفاف نهر وادي لكه تلاقي العرب والقوط ، أو تلاقى الاسلام والنصرانية وذلك لليلتين بقيتا من رمضان سنة ٩٢ هـ »

اصطف المسلمون والكثير منهم يمتطي متون الخيل عليهم الزرد وفوق رؤوسهم العمام البيضاء ، وبأيديهم القسي العربية ، وقد تقلدوا السيوف واعتقلوا الرماح والاتحاد ملء أفئدتهم والحماسة تغلى في صدورهم وكلهم اخلاص لقائدهم الا كبير طارق يرمون إلى غرض واحد ، إما الفوز وإما الموت في سبيل رفع لواء الاسلام وإعلاء كلمة الدين الحنيف

والقوط بين مشاة وفرسان معتدون بالدروع والدرق والحرايب والفؤوس والمناجل والمقاليع قلوبهم شتى

وقبل اشتباك الطرفين خطب طارق بمحرض جنده فقال « أيها الناس أين المفر البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصديق والصبر —

الخ بما جاء بتلك الخطبة النفيسة التي ان دلت على شيء فقد دلت على ايمان القائد بالنصر والاستماتة في مهاجمة العدو وحض الجند على اتباع الاقدام ، وهي تدل على المثل الاعلى لموقف القيادة والحماس الحربى (فلم يك موقف قيصر فى ألمانيا أو بونابرت فى إيطاليا ومصر بأدعى للأعجاب من موقف طارق فى سهل شريش) إذا اشتملت على الترغيب والترهيب وبث الأمل فى النفوس والرغبة فى نيل الأجر الدنيوى والاخرى معا ، وتذكير الجيوش النصر على العدو بأسلوب يدل على رسوخ ملكة البيان فى القواد وخبرتهم بالقيادة ونفوس الجند

فلما سمع الجند كلام قائدهم الباسل ثارت حميتهم ووطدوا نفوسهم على الموت فى قتال عدوهم ، وكان جيش طارق يظهر أنه كثير العدد إذ قسمه إلى طوائف ليلقى الرعب فى قلوب أهل الأندلس وانضم اليه يهود اسبانيا والنصارى

النجم الجيشان ووقعت معركة هائلة دامت ثلاثة أيام على قول بعض المؤرخين وسبعة على قول البعض الآخر ، واستمال فى أثناءها يوليان وأوباش أسقف طليطلة وأخ الملك ويتزا كثيرا من جند النصرانيين ، وبذرا فى الجيش بذور الشقاق والتفرق ، وأخذ كل أمير يسعى فى سلامة نفسه ، فدارت الدائرة على جيش رودريك ، وقد اختلف المؤرخون فى كيفية موته فمنهم من قال إنه قتل فى أثناء المعركة والذي قتله هو طارق ، ومنهم من قال إنه غرق فى مياه الوادى الكبير وهو يحاول الفرار

نتائج المعركة

تشتت شمل الجيش القوطى بعد المعركة وساد الرعب فى قلوب الأهلين وذاعت أنباء النصر فى طنجة وسبته وما جاورها ، فاندفع إلى الجيش العربى سيل من المغامرين من العرب والبربر فازداد قوة ومنعة ، وزحف على البلاد يفتحها وعلى

القلاع والحصون بهاجمها ويستولى عليها عنوة الواحدة تلو الأخرى

سار طارق بعد الموقعة إلى مدينة شدونة فاستولى عليها بعد حصار شديد ثم زحف على قرمونه فاستولى عليها وفرض الجزية على أشبيلية ، ثم انتهى إلى مدينة اسنجه حيث التقى بفلول القوط . فاقتتل الفريقان قتالا شديدا ، وانتصر طارق ثم قسم جيشه إلى ثلاث فرق الأولى تحت أمرة مغيث الرومي ووجهه إلى قرطبة . والثانية يرأسها زيد بن قاصد وسيرها إلى مالقة ، ورأس هو الثالثة وتوجه بها إلى طليطلة من طريق جيان واحتلها بلاقتال ، وأصدر أوامر صريحة تمنع الجند من النهب والاعتداء وتهديء روع الأهالي ، وتحويل لهم الحرية في دينهم والتمتع بأموالهم والتقاضى عند قضاتهم على شرط أن يدفعوا الجزية في كل سنة . وبعد أن وطد دعائم السلام في طليطلة أنجه نحو الشمال فوصل إلى وادي الحجارة وعبره . ثم إلى جبال وادي رامه فاخترقها من فج سمى باسمه . ثم استولى على مدينة سالم وهي التي أحرز منها على ما يروى المائدة المشهورة المنسوبة إلى سليمان ، وعاد إلى طليطلة مثقلا بالغانم ثم عهد بإدارة المدينة إلى أوباش ، وبعد قليل استأنف زحفه إلى الشمال وغزا قشتالة وليون ، ثم عبر جبال استورقة إلى سواحل خليج غسقونية فكانت نهاية فتوحاته ، ووصله أمر موسى بالعودة إلى طليطلة وكان ذلك لعام من اقتحامه للمضيق

طارق وموسى

رأى موسى أن الوقت قد حان للاشتراك مع قائد القدير في اتمام فتح الإندلس فكتب إلى طارق ألا يتقدم ويتوغل في بلاد القوط قبل أن يلحق به ، ويقال إنه توعد به بالعقاب الشديد لأنه خالف أوامره بعد موقعة شريش وتقدم وزحف وفتح

ما فتح ولكن الثقة من المؤرخين لا يسردون تلك الروايات التي ان دلت على شيء فانها لا تدل إلا على ضعة النفس ومواطن الحسد والغيرة في قلوب أبطال المسلمين مما نزههم عن الاتصاف بها ، وهم هؤلاء الرجال الذين اتصفوا بنبييل الخلق وكامل الرجولة وانكار الذات في سبيل اعلاء كلمة الدين ، ولذلك يجب أن نقابل كل ما كتب في هذا الصدد بناية الحذر وتمام الحيطه

أقام موسى ابنه عبد الله في مدينة القيروان وأعد جيشاً بلغ عدده ثمانية عشر ألفاً من العرب والبربر ، وسار به من أفريقية إلى الأندلس في شهر رجب سنة ٩٣ هـ (ابريل سنة ٧١٢ م) وعبر البحر ونزل بولاية الجزيرة حيث استقبله يوليان في شهر رمضان من السنة عينها ، ثم زحف على مدينة شدونة واستولى عليها وتقدم منها إلى قرمونة ، ودخلها ثم مضى إلى اشبيلية ، وحاصرها ، وكانت إذ ذاك من أعظم مدائن الأندلس شأنًا وفتحها بعد حصار شهر ، ثم فتح مدناً أخرى بين النهر الكبير ونهر تاجه ، ثم زحف على ماردة وكانت قوية الحصون متينة الأسوار فقاومته مقاومة عنيفة ولكنه تغلب عليها وفتحها في شهر شوال سنة ٩٣ هـ بعد أن وصله مدد من أفريقية بقيادة ابنه عبد العزيز ، وقد عامل أهلها معاملة قاسية بسبب عنادهم فانه فرض عليهم جزية سنوية وأخذ أموال القتلى وأموال النازحين عن المدينة ، وطلب أن تسلم إليه أموال الكنائس وحليها وأن يحول نصفها إلى مساجد ، وأن يأخذ رهائن من أشرف القوط .

سار موسى بعد ذلك الى طليطلة وأسرع طارق لملاقاته ، وتقابل القائدان في طلبيرة ، ويقال إن موسى أنب طارقاً وبالغ في إهائته لمخالفته أوامره وعزله عن قيادة جيشه وحبسه ، وعهد بالقيادة إلى مغيث الرومي ، ولكنه اعنذر ودافع عن

طارق دفاعا مجيدا فأرجع طارق إلى القيادة وتصلح القائدان ^(١) وأنجه طارق نحو الشرق صاعداً إلى منابع نهر الناجه ، وأنجه موسى نحو الشمال الغربي وأخضع مدنا كثيرة منها سلنقة ثم عاد إلى الشرق سائرا مع مجرى نهر دورو ، وتقابل ثانية مع طارق خارج مدينة سرقسطة ، وساعده في حصارها واستوليا على المدينة ثم احتلا وشقة وطركونة ولا ردة ، ثم افترق القائدان ، فمضى موسى على شاطئ البحر الأبيض المتوسط متجها نحو الشمال ، ففتح برشلونة وجيرونة وغيرها من المدائن . أما طارق فإنه أتجه نحو الجنوب وفتح طرطوشة وبلنسية وشاطبة ودانية ، واستمر حتى وصل إلى حدود أماره تدمير ، وكان عبد العزيز بن موسى قد استولى على أريولة عاصمة تلك الولاية بعد أن عقد معاهدة مع الكونت تدمير دلت على اعتدال السياسة العربية ولينها كما أنها دلت على تقدم فن الدبلوماسية عند هؤلاء الفتح العظام

موسى في جنوب فرنسا :

ترك موسى طارقا يفتح المدائن والأقاليم في جليقية ، وزحف على رأس جيش كامل العدة قوى العزيمة واخترق جبال البرانس ونزل في أرض فرنسا ، واستولى على ولاية لنجدوك ، وكانت من الولايات التابعة لحكومة القوط قبل سقوطها وهنا فكر القائد الجريء في غزو جميع أوروبا والوصول إلى الشام عن طريق القسطنطينية ، ولو ترك شأنه لاستطاع تنفيذ عزمه مكلا بالنجاح إذ كانت ممالك أوروبا وأماراتها إذ ذاك غاية في الضعف مفككة العري لا تربطها وحدة سياسية ولا تجمعها جامعة دينية ، ولكن الوليد بن عبد الملك تردد في تأييد ذلك الفاتح

(١) وهذه رواية أيضا يجب أن تقابل بشيء كثير من الحيلة والحذر

وأمره بعدم المجازفة بجند المسلمين في أقطار وفيافي يجهلها كل الجهل فعدل عن مشروعه ورجع الى أسبانيا ليتم اخضاع المعقل الجبلية حيث اعتصم المسيحيون الذين فروا أمام موجة الفتح واجتمعوا تحت راية زعيم منهم يسمى بلايو فدخل جليقية واستولى على حصونها وطرده النصارى وطاردهم حتى جبال استورقة الصخرية في أقصى الشمال وكان يفكر في سحق أعدائه سحقاً تاماً لولا أن أتاه رسول من قبل الخليفة يستدعيه وطارقاً الى عاصمة الخلافة

استدعاء موسى وطارق :

كان استدعاء موسى إلى دمشق قبل أن يتم سحق النصارى الذين اجتمعوا تحت راية بلايو فرصة ذهبية لهؤلاء النصارى إذ تمكنوا من جمع شتاتهم واتخذوا تلك المعقل الحصينة موطناً لهم وهناك ترقبوا الفرص للأغارة على أملاك المسلمين وانتزاعها منهم والعمل على توسيع رقعة أملاكهم وظلوا يكيدون ويجهدون على مر الايام حتى نجحوا واستردوا أسبانيا وطردهوا المسلمين إلى أفريقية بعد أن مكثوا بها نحو ثمانية قرون كما سنبينه بعد

نظم موسى حكومة أسبانيا قبل أن يترك البلاد فعين ابنه عبد العزيز نائباً عنه واختار مدينة أشبيلية مقراً للملك لقربها من البحر وترك ابنه الثاني عبد الله وكان قائداً قديراً حاكماً على أفريقية وابنه الأصغر عبد الملك والياً على المغرب الأقصى ، وترك آخر من رجاله قائداً للأسطول وعهد اليه بإدارة السواحل واتخذ مدينة طنجة مقراً له ، ثم رحل الى دمشق في حاشية كبيرة مثقلاً بالكنائس والنقائس وذلك في شهر ذي الحجة سنة ٩٥ هـ ، سنة ٧١٢ م

سقوط موسى وطارق

اختلف المؤرخون اختلافاً بيناً فيما آلت إليه حال القائدين الكبيرين

موسى وطارق بعد تركهما أسبانيا ، ويروى الكثير منهم روايات هي أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة ، فمنهم من قال إن طارقا وكبير قواده مغنياً الرومى كتبوا إلى الوليد يشكوان أمرهما من جراء المعاملة القاسية التى لقيها على يد موسى . وينسبون استدعاء موسى إلى دمشق بسبب غضب الخليفة عليه . ومنهم من قال إن الوليد مات قبل أن يصل موسى وقواده إلى دار الخلافة وأمره الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك بالتريث فى دخول العاصمة ، والانتظار فى طبرية فلسطين فلم يطع الأمر فحقد سليمان عليه ، ولما حضر مجلسه عنفه وعزله وعاقبه وسجنه وجرده من أملاكه ، وسامت أيامه الأخيرة حتى مات فى وادى القرى سنة ٩٧ للهجرة (٧١٦ م) وهو فى حالة عوز وبؤس شديد

أما نهاية طارق فمثلها مثل نهاية الكونت يوليان إذ يمر عليها المؤرخون بالسكون والصمت ولا يذكرون ما حدث له بدمشق ، ولذلك فانتنا نجمل تماماً ما حل بهما بعد عهدنا بهما فى أسبانيا ، وعلى كل حال فانه من المتفق عليه أن سليمان بن عبد الملك انتقم من موسى ومن ولده عبد العزيز ، إذ دس عليه من قتله فى أشبيلية وذلك خوفاً منهما ومن نفوذهما فى أفريقية وفى أسبانيا ، ولأنهما كانا من أنصار الوليد سلفه . ويقال إنهما وافقا مع غيرهم من حكام الولايات والأقاليم أمثال الحجاج ومحمد بن القاسم على نقل ولاية العهد لابن الوليد بدلا من سليمان ، ومهما كانت الدوافع التى اجتمعت لدى الخليفة فانه لا تبرر القسوة التى استعملها مع فاتح الأندلس الذى يعد بحق من أكابر رجال التاريخ الإسلامى على الرغم من اتصافه بالحق والحسد على ما رواه بعض المؤرخين

أثر الفتح العربى فى أسبانيا:

قال الاستاذ عبد الله عنان « قضى الفتح العربى على امتيازات الأشراف ،

ونخفف من عبء الضرائب الذى كان يثقل كاهل الشعب ، وفرضها المسلمون
بالمساواة والعدل على جميع العناصر والطوائف لافرق بين دين أو جنسية، وأمنوا
السكان على أموالهم وعقائدهم ، وأباحوا لهم اتباع قوانينهم وتقاليدهم ، واختيار
حكامهم من بينهم ، وأخذوا بنصر الطبقات المستعبدة التى كانت إلى ذلك
العهد فى أتعس حالات الذل والفاقة ، فعاد السكان إلى المدائن والقرى بعد
التشتت فى الجبال والسهول ورحبوا بالنظام الجديد»

وقال الأستاذ لين بول « أنشأ العرب حكمه قرطبة التى كانت أعجوبة
القرون الوسطى بينما كانت أوروبا تتخبط فى ظلمات الجهل ، فلم يكن ثمة سوى
المسلمين من أقام بها منار العلم والمدينة » .

الفصل الثالث

أسبانيا العربية بعد سقوط موسى:

قسم الفاتحون أسبانيا إلى عدة مقاطعات يدير شئون كل مقاطعة حاكم يختاره الأمير الذي يعينه حاكم أفريقية بتفويض من بلاط دمشق وقد اشتملت المقاطعة الأولى على الأراضي الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط ونهر الوادي الكبير ، وكذلك الجزء الواقع بين ذلك النهر وبين وادي يانه ، واشتهر من مدنها الكبيرة قرطبة واشبيلية ومالقة وجيان .

أما المقاطعة الثانية فقد اشتملت على أواسط أسبانيا وعلى الجزء الواقع بين البحر الأبيض المتوسط شرقا ، ونهر دورو شمالا ، وولاية البرتغال غربا ، واشتهر من مدنها طليطلة ووادي الحجارة وبلنسية ودانية وقرطاجنة ومرسية ولارقة .

أما المقاطعة الثالثة فقد اشتملت على جيليقية والبرتغال واشتهر من مدنها باجة ولشبونة واسترقة وسموره وسلمنقة

وقد امتدت المقاطعة الرابعة من شاطئ الدورو إلى جبال البرانس على شاطئ نهر الأبرو واشتهر من مدنها سرقسطه وطرطوشة وطرقونه وبرشلونه وجيرونة وقسطيلة وغيرها .

ولما اتسع نطاق الفتوحات الإسلامية أنشئت مقاطعة أخرى في منطقة البرانس واشتهر من مدنها أرجونه وطرطوشة وغيرها

تفرقت القبائل العربية المختلفة في هذه المقاطعات والمدائن ، فنزلت قبائل

حمص بأشبيلية ، ونزلت قبائل دمشق بقرطبة ، وقبائل قنسرين بجيان ، وقبائل فلسطين بشدونه والجزيرة ، ونزلت قبائل فارس واليمن ، مدن رية وشريش وطليلة وغرناطة وماردة وغيرها . ونزلت الحجاز بداخل الجزيرة

ولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير في أسبانيا :

كان موسى قبل الرحيل عن أسبانيا قد أقام ابنه عبد العزيز نائباً عنه في إدارة الشئون في أسبانيا. فأبدى عبد العزيز همه فائقة في إدارة الحكومة الجديدة . واليه يرجع الفضل في تنظيم أمورهما ، إذ أنشأ ديواناً لتطبيق الأحكام الشرعية وتنسيقها حتى توافق مشارب السكان ولتجمع كلمة القبائل ، وشجع الزواج بين الفاتحين والاسبان ، وتزوج هو بأرملة رودريك (أم عاصم) وشجع المهاجرين إلى البلاد الاسبانية ، فتوافد عليه المهاجرون من مصر والشام وفارس . فأحبوا في الجزيرة موارد الصناعة والتجارة ، ولكنه قد قتل في شوارع أشبيلية في أواخر سنة ٩٥ هـ باغراء من سليمان بن عبد الملك إذ كان يخشى أن يجد فيه منافساً يسعى وراء الاستقلال لنفسه

الولاية في أسبانيا بعد العزيز:

بعد قتل عبد العزيز أقام الجند في أسبانيا أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير والياً على البلاد ، ولكنه لم يمكث أميراً إلا بضعة أشهر نقل في أثناءها مقر الحكومة من أشبيلية إلى قرطبة ، وعزله حاكم أفريقية الذي كان من حقه أن يعين حاكم الأندلس ، ثم ولى مكانه آخر ، فكثرت الاضطرابات والفتن في البلاد ، فعزله عمر بن عبد العزيز وولى مكانه السمع بن مالك الخولاني .

ولاية السمح بن مالك الخولاني :

قبض على أزمة الحكومة بنشاط وحزم ، وبادر الى اصلاح الخلل الذي سرى الى الادارة والجيش ، وابتنى قنطرة قرطبة الشهيرة ، ومسح أرض الجزيرة ، وبعد أن تم له تنظيم الأمور فكر في غزو فرنسا فزحف على سبتمانيا و يروفانس ، وشتت شمل الثوار هناك ، ثم تقدم لمحاربة دوق أوتين أقوى أمراء الافرنج إذ ذاك ، واستولى على بلاد كثيرة ، ثم زحف على تولوز (طالوشة) عاصمة الأماة لمحاصرتها وفتحها . ولكن الدوق قابله ونشبت بين الفريقين معركة قتل فيها السمح في شهر مايو سنة ٧٢٠ م وارتد المسلمون الى يروفانس

انتخب الجند بعد مقتل السمح عبد الرحمن بن عبد الله الفاققي لتولى قيادة الجيش فلبث في منصبه سنتين ، وقد وصف المورخون عبد الرحمن بالشجاعة والمهارة الفائقة والأمانة والعدل ، إذ أخذ الفتن التي كادت أن تمزق الجزيرة ، إلى أن قدم الحاكم الجديد في صفر سنة ١٠٣ هـ وسنة ٧٢١ م

عنبسة بن سحيم الكلبي :

تولى إدارة الشئون بعد السمح ، واستأنف الفتوحات الاسلامية في الشمال فزحف على لنجدوق (مقاطعة سبتمانيا) مرة أخرى . وفتح الحصون الشمالية . وقوى شوكة الاسلام في جنوب فرنسا . ولكنه لسوء الحظ قتل سنة ١٠٧ هـ سنة ٧٢٦ م قتله جماعة من الثوار الفسقونيين في إحدى مفاوز جبال البرانس . فعادت الاضطرابات الى الجزيرة . وتوقف الجيش عن الغزو وانسحب الى الداخل

الاضطرابات في أسبانيا :

عمت الاضطرابات البلاد بعد قتل عنبسة ، واختلت الادارة الحكومية وقوي مساعد الثوار من النصارى الذين كانوا قد اجتمعوا تحت قيادة زعيم منهم يسمى بلايو ، واختلقت القبائل العربية ، وظهرت العصبية القديمة ، وتمرد البربر ، وظلت الحال كذلك مدة خمس سنوات تولى في أثناءها خمسة ولاة ، وأخيرا عين الخليفة هشام بن عبد الملك في سنة ٧٢٩ م عبد الرحمن الغافقي واليا على الأندلس .

عبد الرحمن الغافقي :

تولى عبد الرحمن الغافقي بلاد الأندلس للمرة الثانية بأمر من الخليفة هشام ابن عبد الملك سنة ١١٣ هـ سنة ٧٢٩ م ، ويعتبر عبد الرحمن أكبر حاكم وليها في عهد الأمويين وأعظمهم اقدا ما وجرأة . إذ كان قائدا عظيما ومصلحا كبيرا . فرحب المسلمون بتعيينه ، وأحبه الجند لعدله وكان عظيم الهيبة ، نافذ الكلمة في جميع القبائل ، فنصالح مضر وحير . وساد الوئام في الجيش ، وانتظمت أحوال الجند

بدأ عبد الرحمن ولايته بزيارة المقاطعات المختلفة ، فنظم شئونها ، وعهد بإدارتها إلى الأكفاء ، وقع الفتن ورد المظالم ، وأعاد إلى المسيحيين مساكنهم وأملأهم المفتصة ، وعدل نظام الضرائب وفرضها على الجميع بالمساواة

وقضى صدر ولايته في العناية باصلاح الخلل الذى تطرق إلى الادارة في عهد سلافه ، ثم التفت إلى اصلاح الجيش ، وزاد في عدده وأضاف إلى الصفوف فرقا من فرسان البربر بأشراف ضباط من العرب أولى شجاعة وبأس ، وبالغ في اتخاذ

التدابير لتحصين الجهات الشمالية .

عبد الرحمن في فرنسا :

أخذ عبد الرحمن العدة لغزو فرنسا . ليثأر لقتل السمح بن مالك وارتداد المسلمين عند أسوار تولوز (طالوشه) ، وكان الحماس الديني إذ ذاك عظيماً ، فاحتشد المسلمون تحت إمرة للغزو والجهاد ، وكان أحد أمراء المسلمين في الشمال المسمى عثمان بن أبي نسعة قد خرج عن ولائه للمسلمين وصاهر الدوق أوكيتين بأن تزوج ابنته وتحالف معه ضد المسلمين

كانت فرنسا تنقسم حين قصدتها عبد الرحمن إلى أقاليم منها :

(١) إقليم سبتمانيا في الجنوب الشرقي وعاصمته نربونه . وكان قد دخل في حوزة المسلمين من جبال البرانس إلى نهر الرون

(٢) إقليم أوكثانيا على شمال وغرب سبتمانيا ، يحده من الجنوب جبال البرانس ومن الشمال نهر اللوار ، ومن الشرق نهر الرون ، ومن الغرب المحيط الأطلنسي وعاصمته تولوز

(٣) إقليم استرازيه في شمال نهر اللوار وكان يحكم هذا الاقليم شارل (قارله) وكان بين هذا الأمير وأمير أوكثانيا نزاع وحسد

قلنا إن عثمان بن أبي نسعة كان قد تحالف مع الدوق أوكيتين ضد المسلمين لكن عبد الرحمن الغافقي لم يسمح له أن يتمتع بذلك الحلف بل نهض لمحاربتة ، وأرسل جيشاً إلى جبال البرانس حيث كان يقيم الثائر الخائن مع زوجته ، فتغلب الجيش عليه وقتله ، وأخذ زوجته وأرسلها إلى بلاط دمشق حيث تزوجها أحد أبناء الخليفة (على ما يقال)

وهب الدوق أ كوتين للأخذ بثأره ، ودخل أملاك المسلمين ودمر وخرب ،
فزحف عبدالرحمن بنفسه لتأديبه ، ودخل أرض فرنسا في فصل الربيع سنة ٧٣٢ م ،
وتقابل مع الدوق أ كوتين على ضفاف الرون فانتصر عبد الرحمن ، وانجده بعدئذ
إلى بوردو ، وأستولى عليها واخترق المسلمون إقليم بروجونيا ، وخفق العلم الاسلامي
فوق مدينة ليون وبيزنسون (مسقط رأس الشاعر فكتور هوجو) . وبعد أن
حصنها عبد الرحمن وترك في كل منهما حامية قوية قرر الزحف على
عاصمة الفرنجة .

قال ادوارد جيون : وامتد خط الظفر إلى ألف ميل من صخرة طارق إلى
نهر اللوار ، وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة يحمل الجيش الاسلامي إلى حدود
بولونيا شرقا ، وآكام اسكتلندا شمالا ، فليس الرين بأمنع من النيل أو الفرات ،
وربما اخترق الأسطول العربي عباب التيمس بلامعركة بحرية ! بل وربما كانت
تعاليم القرآن تدرس الآن في كليات أكسفورد ، وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد
صدق الوحي والرسالة »

معركة تور أو بلاط الشهداء : (٧٣٢ — ٧٣٣ م — ١١٤ — ١١٥ هـ)
أزعجت أخبار النصر الذي وفق إليه عبد الرحمن زعماء الأفرنج وأمراءهم
وبعد أن اكتسح المسلمون مقاطعة أ كوتين ، وشتتوا جيوشهم ، واستولوا على
كثير من المعابد والمدائن لم يردوق أ كوتين بدا من الاستنجاد بمنافسه شارل
ابن بيبين محافظ القصر بباريس .

وقد كان شارل أقوى أمراء الأفرنج إذ ذاك ، وكان قد تغلب قبل ذلك
على الثوار في ألمانيا وشمال فرنسا ، وقد كان نافذ الكلمة في البلاط المير وفنجي
(بلاط فرنسا) .

استنجد أمير الكوتين بشارل المذكور ، فلبى الدعوة إذ رأى في تلبيتها تحقيقاً لأطماعه من اغتصاب العرش الفرنسى ، والاستئثار بالسلطة والقضاء على منافسه ، فحشد جيشاً جراراً من الجند المرتزقة القاطنين على ضفاف الدانوب والألب ومن بين العشائر الجرمانية المتوحشة ، لمساعدة جنده من الأفرنج ، ثم زحف نحو الجنوب بين التلال والآكام للملاقاة العرب : وكان الجيش الاسلامى فى تلك الآونة قد زحف على مدينة تور الواقعة على نهر اللوار واستولى عليها . ولما اقترب شارل بجيشه ، ورأى عبد الرحمن أن جيوش الأفرنج تفوقه كثرة انقلب راجعاً من ضفاف النهر إلى السهل الواقع بين مدينتى تور وبواتيه

حال الجيش الاسلامى قبل الموقعة :

غنى المسلمون غنائم لا تحصى باستيلائهم على الكواتين ، ويقال إنه كان من نصيب كل جندى من الذهب والزمرد والياقوت والسوسن ما كان ينوء بحمله . خلا طعامه وعدته التى كان يحارب بها ، وقد أحدثت هذه الغنائم فى صفوف المقاتلين اختلالاً ، ودب الشقاق بين قبائل البربر إذ كانت تتوق إلى الانسحاب نحو الجنوب فارة بغنائمها ، وخشى عبد الرحمن أن تكون هذه الغنائم سبباً فى تعطيل حركات الجيش وانشغال الجند ، فحاول أن يحملهم على ترك جزء منها ، ولكنه لم يشدد فى ذلك خيفة التمرد ..

حال جيش الأفرنج أيضاً :

وكان جيش شارل مؤلفاً من فرسان كثيرة ومشاة يتشحون بجلود الدواب وتنسدل شعورهم المتجمدة فوق أكتافهم

المعركة :

عبر شارل نهر اللوار ، وعسكر على قيد أميال من العرب ، ونحصر على ضفاف النهر ؛ ثم نشبت بين الجيشين معارك كثيرة صغيرة لمدة أيام ثمانية على قول بعض المؤرخين ، وفي اليوم التاسع ، حدثت بينهم معركة هائلة فتقاتلا حتى انسداد الظلام ، وفي اليوم التالي استأنفا القتال ، فضاغف المسلمون قواهم ، حتى ظهر الاضمحلال في جيش الأفرنج وأصبح النصر من المسلمين قاب قوسين أو أدنى ، ولكن حدث حينذاك أن صاح في المواقع الاسلامية صائح إن جند المسلمين وغنائمهم في خطر عظيم ، فوقع الاختلا في صفوف المسلمين وتوالت الجند للدفاع عن غنائمهم . فحاول عبد الرحمن أن يعيد النظام ، وأن يهديء من ثورة الجند فلم يفلح ، وأصابه من جانب الأعداء سهم أودى بحياته ، فعم الاضطراب الجيش الاسلامي ، فانهز الأفرنج هذه الفرصة ، وهجموا على المسلمين ، على أنهم قد رحبوا بقدوم الظلام ، وأوقفوا القتال عند انسداله

قام النزاع بين قواد الجيش العربي وضباطه بعد مقتل عبد الرحمن ، واختلفت القبائل وهاجت الخواطر ، فنبذ المسلمون فكرة النصر ، وعولوا على الانسحاب بأمن وسلام يحملون معهم غنائمهم ، وارتدوا إلى سبتانيا في ظلام الليل ، وفي فجر الغد أقلق شارل وحليفه الدوق ا كوتين سكون المعسكرات الحربية ، فتقدم منها بحذر ، فألفياها خلوية إلا من بعض الجرحى الذين لم يستطيعوا مراقبة الجيش المنسحب ، فذبحوا على الأثر ، ولم يجرؤ شارل على مطاردة العرب بل ارتد بجنده شمالا

ويجمع مؤرخو الفرنج والنصرانية على أن مقتل عبد الرحمن في صدر الموقعة

كان من أهم أسباب ارتداد العرب الذين بعد أن قتل قائدهم انسحبوا في ظلام الليل دون أن يشعر بهم المسيحيون الذين كانوا يتوقعون هجومهم في اليوم التالي وقد قتل كثيرون من المسلمين حال الارتداد : وقد وقعت الهزيمة بالمسلمين في العام الخامس عشر بعد المائة من الهجرة . وكان من نتائج هذه المعركة أن سكن تيار الفتح الاسلامي في فرنسا وباقي ممالك الشمال الأوروبية .

يقول جبون :

« أنقذت موقعة تور أسلافنا البريطانيين وجيراننا الغاليين من نير القرآن المدنى والدينى ، واستبقت لرومية بهاءها وجلالها ، وأخرت استعباد القسطنطينية وشدت أزر النصرانية ، وأوقعت بأعدائها الفشل والتفريق »

ومما يؤخذ على مؤرخى العرب أنهم لم يحاولوا التعليق على أهمية الموقعة فاكتنى بعضهم بأن ذكرها في بضع كلمات كما فعل المقرئ وابن الأثير ، ولم يذكر عنها ابن خلدون شيئاً أصلاً

ويسمون بها جميعاً موقعة بلاط الشهداء لكثرة من استشهد فيها من عظماء المسلمين

أما أثرها في اسبانيا الاسلامية فقد كان بعيداً ، إذ اضطربت البلاد وانتهز البربر هذه الفرصة وقاموا في وجه الحكومة العربية الاسبانية . وقادهم مؤنس أحد أصحاب طارق بن زياد وأمدهم يوديس أمير أكويتين بجيوش أفرنجية

وترجع أسباب ثورتهم هذه أن العرب أجحفوا بحلفائهم البربر الذين أبلوا بلاء حسناً في المواقع الحربية في أثناء القتال ، وتحملوا عبأه بنفوس قوية وعزيمة

ثابتة ، ولكن لما تم الفتح وأراد الفريقان من عرب وبربر اقتسام البلاد والاستقرار فيها اعتبر العرب البربر في منزلة تلى منزلتهم ، وجادوا عليهم بالأقاليم الجبلية الشمالية حيث تصعب المعيشة وحيث القتال كان أبداً متصلاً بينهم وبين المسيحيين في معاقلم الجبلية كجبال ليون واستورقة وجيلقية ، وأقاموا أنفسهم في أخصب البلاد وأجملها مما احق البربر واستنار حفيظتهم. ولم يكتف العرب بهذا بل كثيراً ما تدخلوا فيما بين البربر وبين المسيحيين ، فاذا ما فرضوا الجزية على النصارى تدخل العرب ومنعهم من جمعها ، وأنزلوا بالمخالف شديد العقاب من سجن وجلد وتعذيب

ولحسن حظهم ثار في ذلك الوقت إخوانهم في شمال أفريقية ضد الحكم الاسلامي ، وذلك لما رأوه من عسف بعض الولاة العرب ، والبربر مجبولون على حب الحرية وكراهية الخضوع لحاكم قوى حازم شأنهم في ذلك شأن العرب في جاهليتهم ، ولما تغلب عليهم العرب بعد معارك دموية كما رأينا خضعوا على مضض ، وترقبوا الفرصة للقيام بالثورة لاسترداد حريتهم ، وقد سنحت لهم تلك الفرصة عند ما أرسل عبید الله حاكم أفريقية حملة إلى جزيرة صقلية ، وفرض حاكم طنجة الجزية على من أسلم منهم ، فأجمعوا أمرهم على الثورة وقادهم ميسرة أحد مشاهير قوادهم ، وعلقوا المصاحف فوق أسننه الرماح وانقضوا على طنجة فاستولوا عليها وقتلوا حاكمها وقتلوا معه عدداً كبيراً من العرب ، وبلغ الخليفة هشام أمر ثورتهم فأرسل جيشاً من سورية ومصر بقيادة كلثوم بن قشير ومعه ابن أخيه بلج ، وبعد حروب طاحنة ارتد الجيش منهزماً أمام البربر ، ولجأ إلى حصن سبته واستولى عليه وتمحصن فيه ، وحاصره البربر ، وبذلك أصبحت ثورة البربر في كل من شمال أفريقية والاندلس ثورة خطيرة الشأن من الوجهتين السياسية والدينية ،

ولو نشط نصارى الشمال فى ذلك الوقت ، وأجمعوا أمرهم وهاجموا الأماكن الإسلامية لاستفادوا كثيرا بسبب تفرق كلمة المسلمين

قامت هذه القلاقل ، ولكنها لم تدم طويلا بسبب يقظة الخليفة هشام بن عبد الملك ، إذ أنه حينما علم بالخطب الجلل الذى أصاب المسلمين فى سهول تور ، وبجالة البلاد المضطربة عين عبد الملك بن قطن الفهرى حاكما للأندلس ، وأمره أن يعمل على استعادة هيبة المسلمين فى تلك الأقطار

ولاية عبد الملك بن قطن الأولى :

تسلم زمام الأمر ، ونهض لاختاد الثورات نهضة قوية ، وقد استطاع أن يخمّد ثورة البربر بواسطة استفدائه جند الشام من شمال أفريقية ، ثم التفت بعد ذلك الى محاربة الثوار من الفرنجة فى شمال البرانس ، وأمر حاكم أرجونة المسلم أن يقوم لغزو شرق فرنسا الجنوبى ، فنجح نجاحا عظيما فى تلك الأصقاع واستولى على مدينة أفنيون ، ثم رجع نحو الجنوب فقابلته نصارى الجبال الاسبانيون ، وشتتوا شمل جيشه ، فأضاعت هذه الهزيمة ثقة قبائل اسبانيا فيه ، فعزلته والى أفريقية فى الحال ، وولى مكانه أخاه عقبة بن الحجاج . وكان ذلك فى شهر رمضان عام ١١٦ هـ نوفمبر عام ٧٣٤ م .

ولاية عقبة بن الحجاج :

كان قائدا لقوات الخليفة فى شمال أفريقية . وأظهر فى محاربة الثأرين من بربر أفريقية مقدرة وشجاعة ؛ فعين أميرا على بلاد الأندلس إذ عزل القواد المغلوبين ، والعمال الذين استأثروا بمال الحكومة ، وأقام فى المدن والقرى قضاة ، وعين لكل إقليم واليا ، ورتب جيشا لحفظ الأمن فى كل إقليم ، ووضع نظاما عادلا

للخراج ، واشتهر عصره بإنشاء مساجد كثيرة بجوارها مدارس ، وعرف بين الناس بالنزاهة والاستقامة ، وقد عين عبد الملك الوالى السابق عند ما ظهر له براءته مما نسب اليه أميراً على الولايات الشمالية (نفاره وأرجون) وجعل مقره مدينة بنبلونة

غزوه بلاد الفرنجة

أمره الخليفة بعد أن استقام له الحال فى أسبانيا أن يغزو الفرنجة، فجهز جيشاً وسار به من قرطبة إلى الشمال ، ووصل إلى سرقسطة ، وعزم على جعلها مركز أعماله ، ووضع الخطة الحربية للزحف على فرنسا ، ولكن قبل أن يتم ما أرادته قامت ثورة فى شمال أفريقية من جانب البربر للمرة الثانية ، فأرسل اليه أخوه يطلب النجدة ، فترك أسبانيا وأسرع إلى أفريقية ومعه قوة من الفرسان فى سنة ١١٩ هـ ٧٣٧ م

يقول بعض المؤرخين : إنه فى أثناء المدة التى أدار فيها الشئون فى أسبانيا قد غزا فرنسا عدة مرات ودفع بالفتوحات العربية إلى أبعد مما كانت عليه ، وانتشرت الجيوش الاسلامية فى أنحاء فرنسا وهددت عاصمتها ، وقد نهض شارل زعيم الفرنجة وتحالف مع غيره من النصارى وقاوم الفتح الاسلامى مقاومة عنيفة واستولى على أفنيون بعد حصار طويل وذبح حاميتها الاسلامية ، ثم حول السهل الواقع فى جنوب اللوار إلى بلقع قفر ليعرقل تقدم المسلمين إذا ما عادوا إلى غزو بلاده

عقبة فى أفريقية :

وصل إلى طنجة واتحد مع القواد المحليين ، فبددوا شمل الثوار ، وسكنت

الفتنة في شمال أفريقية ، وقد بقي في تلك الاقطار طويلا ليعمل بجانب أخيه على تهدئة الأحوال واستتباب الأمن والسلام

اختلت الأمور في أسبانيا في أثناء غيبته ! فعاد إليها سنة ١٢٢هـ . سنة ٧٤٠م ولكنه مات بعد ذلك . وقد اختلف المؤرخون في كيفية موته فمنهم من قال : إن موته كان نتيجة لدسائس عبد الملك ، ومنهم من قال : إن الشعب الأسباني ثار في وجهه وطرده من أسبانيا

ولاية عبد الملك بن قطن الثانية :

أقر الخليفة هشام عبد الملك بن قطن الفهرى في أمانة الأندلس سنة ١٢٥هـ وسنة ٧٤٣م . وقد ثار البربر للمرة الثالثة في شمال أفريقية بقيادة خالد الزناني وانتصروا في المغرب الأقصى على جند الخليفة انتصارا باهرا بعد أن هزموا الأمير كلثوم بن عياض قائد الخليفة ، فلما بلغت الأخبار اخوانهم ثاروا أيضا في وجه عبد الملك بن قطن . وأرادوا التخلص من حكم العرب ، فقسموا أنفسهم إلى ثلاث فرق ، انجبت فرقة إلى طليطلة ، وكان يحكمها أمية بن عبد الملك وأخرى حملت على قرطبة ، وكان عاملها عبد الرحمن بن عقبة ، أما الثالثة فقد انجبت نحو الشاطئ ولتمتع وصول المدد من أفريقية إلى أسبانيا

استعانة عبد الملك بجند الشام لاختادة الثورة :

كان بعض الجند من الشاميين والمصريين قد التجثوا الى سبته أمام انتصار البربر ، وكان يقودهم قائدان هما : ثعلبة بن سلامة ، وبلج بن بشر ، فاستنجد بهما عبد الملك ، فعبرا مع جندهما البحر ، وذهبا الى أسبانيا ، فتغلبوا

على ثورة البربر، وهكذا أنقذ السوريون الموقف ومزقوا البربر كل ممزق وأصابوا
حظا عظيما ومغانم وفيرة

قتل عبد الملك :

وصفا الجو وهدأت الثورة فأراد عبد الملك أن يتخلص من حلفائه البغيضين
وطلب إلى زعيمهم بلج أن يغادر الأندلس، ولكن السوريين كانوا يودون الإقامة
في الأندلس حيث قرت أعينهم وطاب عيشهم : وهكذا تفتحت الجراح المندمة
وتبين بلج سوء نوايا عبد الملك لما رفض هذا أن ينقل عسكر بلج معه بحجة أن
سفنه لا تتسع للسوريين وأموالهم وعبيدهم وجواريهم، وعرض أن ينقلهم من
الجزيرة الخضراء إلى سبتة لا إلى مدينة غيرها، فبيت بلج النية على غدو عبد الملك
فانتهر فرصة خلوقرطبة من جندها وانقض بجنده السوريين على قصر عبد الملك
وقبض عليه، ونصب نفسه أميرا على الأندلس في سبتمبر ٧٤١م، وطلب الجند من
أميرهم بلج أن يقتل عبد الملك فجادلهم طويلا ليثنيهم عن عزمهم، وأخيرا اضطر
إلى الرضوخ لأمرهم ودفنه إليهم فاقادوه إلى قنطرة قرطبة وضربوه بالسياط ضربا
موجعا ثم أغمدوا سيوفهم في جسده وصلبوه على القنطرة إلى جانب خنزير وكلب

حال أسبانيا بعد قتل عبد الملك :

واستثارت هذه الشناعة وهذا التمثيل الفظيع بزعيم قد تقدمت به السنون
كامن السخط في نفوس عرب الجزيرة. وهم الطائفة الأولى التي استقرت بالأندلس
فنادوا بالحرب وأمروا عليهم ولدى عبد الملك — أمية وقطن — وانضم إليهم
البربر انتقاما لأنفسهم، وجاء إليهم حلفاء آخرون منهم عبد الرحمن بن حبيب
الفهري من بني نخع حاكم أفريقية، وعبد الرحمن بن علقمة حاكم تاربونة،

وبلغ عدد للتحالفين ما بين أربعين ومائة ألف ، أما جيش بلج فلم يزد عن
أثنى عشر ألفا ، وانضم إليه عدد من حراث الأرض المسيحيين ، وانتظر بلج
أعداءه بالقرب من قرية صغيرة اختار موقفه عندها ، فأصبح السيف هو الحكم
الفاصل بين المدنيين والسوريين في التسيطر على الأندلس

ولما التقى الجمعان في أغسطس ٧٤٢ م دافع السوريون عن أنفسهم دفاع
الأبطال وصدوا أعداءهم ، ولكن عبد الرحمن بن علقمة حمل على بلج وقصده
بالدات وطعنه في رأسه طعنات عدة ، إلا أن فرسان قنسرين صدوا هجماته وأوقعوا
الرعب في قلوب الحلفاء فولوا الأدبار بعد أن جندل منهم عشرة آلاف ، ودخل
السوريون قرطبة دخول الظافرين ، ولكن عكر عليهم صفو هنتهم موت بلج متأثرا
بجراحه ، فتولى القيادة يميني اسمه ثعلبة ، فأطلق يد جنده في قتل أعدائهم
المدنيين وأباح لهم السلب والنهب وبهذا عظم أمره في أعينهم — وبدأ ثعلبة
قيادته بمطلع غير موفق إذ هاجم العرب المدنيين وحلفاءهم البربر المتحصنين
في ماردة ، فهزموه هزيمة منكرة فخرج بعدها موقفه ، ولكن ساعده الخبط بأن جاء
يوم عيد وفيه نسي الناس أمر ثعلبة واحتفل القوم بعيدهم وتفرق الجند عائدين إلى
أهلهم ، فأخذم ثعلبة على غرة وهاجمهم وشتت شملهم وقتل منهم مقتلة عظيمة
وأسر ألفا من الأسرى وسبي نساء أعدائه وأطفالهم في مايو ٧٤٣ م وساق ثعلبة
النساء والأطفال والأسرى إلى الأسواق حيث بيعوا بأبخس الأثمان أذلالا
لأعدائه ، حتى لقد بيع رجل من المدينة بكلب وآخر بعنز . ولم يحدث قط منذ موقعة
الحرّة أن صب السوريون إهاناتهم على أهل المدينة من أبناء المهاجرين والأنصار
كما فعلوا هذه المرة

في هذا الموقف المصيب فكر قوم من عقلاء الطرفين في وضع حد لهذه

الفضائع الناجمة عن الحرب الداخلية التي مزقت البلاد شرمزق خشية أن يفتنهم المسيحيون من أهل الشمال سأنح الفرصة في شن غاراتهم على المسلمين ، فأرسلوا الى حنظلة الكلبي والى أفريقية يسألونه في ارسال حاكم قدير الى الأندلس من قبله يقوى على إعادة الأمن الى نصابه ، فأرسل اليهم حنظلة أبا الخطار الكلبي فوصل يوم بيع الأسرى من المدنيين فكان أول عمله أن أطلق سراحهم

ولاية أبي الخطار:

في سنة ١٢٥هـ تسلم أبو الخطار زمام السلطة ، فوطد دعائم النظام في الجزيرة بالسياسة والحزم أكثر من العنف والقوة ، الى أن دخلت كلها في دائرة سلطانه واعترف أهلها بالسيادة العامة ، ثم أخذ يقسم الأراضي بين الجند الذين هرعوا الى اسبانيا من اليمن والشام ومصر والمغرب ، لكنه لم يتم استتباب الأمن في الجزيرة زمنا طويلا لأن أبا الخطار عند قسمته الأرض بين القبائل مال الى جانب اليمنيين ، والحميريين ، فحنق من ذلك المضريون ، وثاروا في وجهه ، وفاد الثورة الصميل بن حاتم بن شمر

السميل بن حاتم بن شمر بن ذى الجوشن :

ظهر هذا الزعيم في الأندلس وقت أن حكمها أبو الخطار ، وكان شيخ بني قيس وجده هو الذي قاد جند يزيد في قتال الحسين بن علي وهو الذي أصر على قتل الحسين في كربلاء واحتز رأسه بيده وحمله الى يزيد ، ولما ثار الخوارج التوابون لبنى علي قتل المختار بن أبي عبيد الشيعي شمر ورمى جثته للكلاب

وعندئذ فر حاتم بن شمر الى قنسرين حتى اذا جهز هشام جيشه لاختضاع البربر في شمال أفريقية انضم اليه الصميل بن حاتم ، وكان في صحبة بلج عند مسيره

إلى الأندلس بطلب من عبد الملك بن قطن الفهرى ، وأصبحت له منزلة بين بني قيس واعتبروه زعيماً لهم

وسبب الثورة المباشر أن حدث ذات يوم أن تقاضى أمامه شخصان أحدهما من كنانة والآخر من كلاب ، ومع أن الحق كان في جانب الأول إلا أن أبا الخطار انحاز إلى الكلبي

وشكى القيسى إلى الصميل فذهب لفوره إلى أبي الخطار في قصره يناقشه الحساب ، ولكن الأمير طرده من قصره ، واستعمل عبيد الأمير العنف في إخراجه حتى انهذلت عمامته ، فلما كان في طريقه لقيه شخص فقال له ما أصاب عمامة ابن جوشن فكان جوابه :

سأنظر إذا كان حولي قوم يصلحونها ، ولم يكن الصميل بالذى يستهان به ، فلم يكذب يصل إلى بيته حتى دعا قومه للمشورة ، فقالوا له بين لنا رأيك وستجدنا إن شاء الله صابرين ولا نعصى لك أمراً ، فقال لا تزعن الملك من يده ، ثم سعى في التحالف مع بني نغم وأميرهم يوسف ، وبني خزيمه وأميرهم ذؤابة ، ونجح في استمالة أبي عطاء زعيم غطفان اليه ، ولما انتظم شملهم جمعوا جموعهم في مقاطعة شدونة في ابريل ٧٤٥ م وأمروا عليهم ذؤابة

ولما علم أبو الخطار بخروجهم سار بنفسه اليهم ومعه يمانيون في جيشه ، وقابل ذؤابة والصميل عدوهما المشترك عند نهر بقة (جواديليت) قهاون اليمانيون في مقاتلة بني قومهم من نغم وجذيمة ، ثم عمدوا إلى الفرار فتولت الضربات على جيش أبي الخطار من بني كلب

وفر هو منهزماً مع فلول جيشه ، وجده أعداؤه في مطاردته حتى وقع في أيديهم

فشدوا وثاقه وساقوه أسيرا ذليلا إلى قرطبة ودخل ذوابة (ثوابة بن سلامه)
قرطبة دخول الظافر وجلس على كرسي أمانة الأندلس .

ولم يستكن بنو كلب للهزيمة فقام أحدهم : عبد الرحمن بن نعيم وانقض على
قرطبة في ليلة مظلمة ومعه أربعون فارساً ومائتا راجل ودخل المدينة على حين غفلة
من أهلها ، وهاجم حراس أبي الخطار فشتهم وأطلق سراح زعيمه وقاده إلى باجه
حيث يقيم بنو كلب

ولما رأى أبو الخطار نفسه حرا طليقا جمع شرزمة من اليمانيين وزحف على
قرطبة ، ولكن تصدى له الصميل وذوابة وأغرى الصميل اليمانيين أن يتخاذلوا
وينسحبوا حقنا للدماء ، وللمرة الثانية قلب اليمانيون لأبي الخطار ظهر المجن

ولما توفي ذوابة بعد انقضاء عام على تلك الحوادث في يناير ٧٤٧م سادت
الفوضى بلاد الأندلس مرة أخرى ، إذ تنازع أمارتها عمرو بن ذوابة وابن حريث
ولكن الصميل رشح للامارة يوسف بن عبد الرحمن الفهري

ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهري :

وقد أراد من اختياره إياه أن يكون آلة في يده يديرها كيف يشاء ويحكم
هو البلاد من وراء ستار وفق هواه ومشيتته

ولم ير الصميل أن يحكم الأندلس جهرا وعلانية لعله ان بنى قيس أضعف
من أن ينتصر بهم على مناوئيه من بقية القبائل العربية

وكان يوسف الفهري من سلالة عقبة بن نافع قد تقدمت به السنون إذ بلغ
السابعة والخمسين من عمره :

ولما رأى الصميل أنه أصبح في مقدوره جمع كلمة كل القبائل من معد لم

يخش إظهار حقيقة كراهيته للقحطانيين ، وحديثه نفسه أن يتخلص منهم فاققلب على جذيمة وسلب زعيمهم ابن حريث ما كان يحكم من المدن فتحالف هذا مع أبي الخطار ، واتفقا على أن يعملوا معا وتكون الامارة لابن حريث وانضم اليهما بنو كلب وجند اليمن عامة من كل حذب وصوب ، كما انضم بنو معد إلى يوسف والصميل والتفوا حولهما ، فكان الجار ينزل عن جاره والصديق يفارق صديقه ، ويعتذر كل للآخر عما قد يكون من أمرهما إذا تلاقيا في الميدان

ولتعاذل القوتين كانت الحرب صراعا طويلا انحصرت في جنوب الاندلس اشترك فيها زهرة فرسان وأبطال الفريقين وأشرافهم ، ودارت الحرب على شاطئ الوادي الكبير على الضفة المقابلة لقرطبة ، وبحث كل عن خصمه بعد صلاة الصبح ، فكانت مناخزة رجل لرجل ، وأرخی الليل سدوله ولم يكتب لفريق النصر على خصمه ، وعندئذ لحق الفريقين الاعياء وأجهدهما النصب بعد إذ تكسرت السيوف والقسى والنصال ، فأشار الصميل على يوسف بدعوة رعاقرطبة فحضر منهم ٤٠٠ معظمهم أعزل من السلاح ومع قليل منهم سيوف ورماح ، ومع القصابين من بينهم مدى وسكاكين ، وعند وصولهم انقضوا على أصحاب ابن حريث المنهوكي القوى لما أبلوه طيلة اليوم ، وهزموهم ووقع أبو الخطار في أيديهم أسيرا فلما أرادوا قتله غاظه أن يهرب شريكه ابن حريث وينجو بحياته فدل الاعداء عليه فقادوه من مخبئه وضربوا عنقيهما معا

ولما تم الأمر ليوسف بن عبد الرحمن الفهري رأى أن يتخلص من الصميل وتدخله في شئون الحكم فعينه حاكما على سرقسطه ، وأطاع الصميل الأمر ورحل اليها عام ٧٥٠ م

ولما عم القحط البلاد في تلك السنة ، ومرت خمس سنين عجاف هلك الناس

جوعا . عندئذ تجلت في الصميل شمائله العربية فنسى عداؤه وغيظه وعصبيته وفرق الأموال ، ووزع الخبز وأطعم الجائع وأهدى العبيد ، وأغاث كل مسكين لافرق في ذلك بين قومه وخصومهم

ولكن ذلك لم يكسبه القلوب ، ولم يستطع الصميل أن يؤلف به بين القبائل المتناحرة ، ولوانه أتمر ثمرته المرجوة لكفى الأندلس شر الفتن والحروب الداخلية وما تجره من كوارث ونكبات ، ولكن انى للأحسان أن ينسى من ناله ماله من ثار عند من أحسن اليه . لهذا لم تكن تلك المكارم المدنانية لتجدي إلا هدنة وقفية فما كان اليمانيون بالذين يرضخون لسيادة العدنانيين وهم الذين دوخوا الأندلس في اعتقادهم ، لهذا قطعوا العزم على أن يستردوا مؤددهم القديم في أول بادرة تسنح لهم . كذلك استاء القرشيون لما رأوا من اعتلاء أحد بني فهر الامارة

ظهور عامر وحباب :

وتحالف القرشيون واليمانيون . وكان ليوسف أمير قرطبه قائد قرشى يدعى عامرا كان له المفضل في اخضاع المسيحيين في الامارات الشمالية ، ولكن يوسف عزله من القيادة فأحفظه ما لقي من سوء معاملة ففاوض اليمانيين في محاربة يوسف ، وخلعه

وأشار الصميل على يوسف باغتيال عامر ، ولكن عامرا علم بالنية المبينة فهرب إلى الشمال حيث جمع جموع اليمانيين بالقرب من بمرقسطة ، وما لبث أن ظهر قرشى آخر يدعى حباب وانضم لعامر عند سرقسطة ، وتقاطرت جموع اليمانيين كافة من جميع جهات الأندلس وبلاد البربر ، وزعم عامر وحباب أنهما تلقيا أمرا بمقاتلة الصميل ويوسف عن الخليفة العباسي

وهزم الصميل في هذه المرة وحوصر في سرقسطة ، على أن عاملا لم يكن في الحسبان تدخل في انقاذه ، وذلك أن الامويين في بلنسية وكذا بنى قيس وكلاب ومحارب وسليم وبكر بن وائل وبنى على ساروا لانقاذه ، ولما رآهم المحاصرون من بنى معدتفرقوا وتخلوا عن الحصار خشية أن يحاط بهم من كل جانب ، وهكذا نجا الصميل فدخل بنو قيس وحلفاؤهم سرقسطة وأجزل الصميل مكافأهم على حسن صنيعهم وظل يوسف حاكما على البلاد نحو ١٠ سنوات في أثناءها حدثت حوادث جسام في المشرق : إذ سقطت الدولة الأموية وحلت محلها الدولة العباسية ، وكان لهذا الانتقال أثره في أسبانيا ، إذ تجدد الشقاق بين القبائل العربية ، ونشط كل من نصارى الفرنجة ، ونصارى شمال أسبانيا ، وأغاروا على أملاك المسلمين واستولى الفرنجة على أرجونة سنة ٧٥٧م وذبحوا أهلها من المسلمين ، وخرّبوا مساجدها ودمروا دورها ومعاهدها

وكذلك استظهر ثوار المقاطعات الشمالية في مقاطعة ليون ، وطرّدوا المسلمين من المعقل الجبلية ، واتخذوها مقرا لهم لتشييد مملكة قوية ، وظلت أسبانيا في اضطرابات فظيعة ، كما ظل يوسف يكافح الثورات حتى سنة ٨٣٨ ، سنة ٧٥٧م حيث تمكن أحد الامويين الذين نجوا من مطاردة العباسيين وهو عبد الرحمن الداخل من دخول أسبانيا واستطاع أن ينزع الامارة من يوسف ، وأسس فيها حكما أمويا مستقلا . وبهذا انقرضت امارة الامراء ومدنها من دخول طارق نحو

الفصل الرابع

اسبانيا النصرانية بعد الفتح العربي

فتح العرب أسبانيا في أواخر القرن الأول من الهجرة ، وفي أوائل القرن الثامن الميلادي كما مر بنا ، وخضع أهلها لحكم العرب وعاشوا في كنفه متمنعين بحريتهم السياسية والدينية ، وقد بهر الاسلام الكثيرين منهم فاعتنقوه ، وصاهروا الغزاة من العرب والبربر فأصبحوا بفضل نعمة الاسلام يقفون على قدم المساواة مع الفتح ، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، وتمتع الذين آثروا البقاء على دينهم من نصارى ويهود بحرية دينية واقتصادية لم تألفها تلك القرون المظلمة التي عاصرت الفتح الاسلامي لبلاد الاندلس . أما المتمنتون من نصارى الاسبان والقوط الذين فروا أمام موجة الفتح إلى شالي أسبانيا وشمالها الغربي فان العرب أهملوا أمرهم في ذلك الوقت استصغارا لشأنهم . ونشطوا لمحاربة الفرنجة والتوغل في أرض جنوب فرنسا ، وكان موسى بن نصير قد فكر في إبادتهم ، وسحق عدوانهم واقتحام معاقلم الجبلية ، ولكنه لم يفعل بسبب استدعائه قبل تنفيذ مشروعه

وقف تيار الفتح العربي في فرنسا بعد موقعة تور ، وعصفت نيران الثورة في أسبانيا العربية ، واشتغل ولاها بقمع القتن الداخلية ، فانهز هؤلاء النصارى تلك الفرص وعملوا على توطيد أقدامهم وتوسيع رقعة أملاكهم في الأقاليم الجبلية في الشمال والغرب ، وذلك بفضل الجهود الجبارة التي بذلها زعيم ظهر من بينهم يسمى بلايو . يقول هـ . ادوارد واتس المؤرخ الشهير « فر نفر من القوط ومعهم فريق من الاسبان الوطنيين الذين تحلوا بصفة الوطنية الحقة المتعصبين لدينهم إلى أقاليم أستورقة الجبلية ،

تلك الأقاليم التي كانت معقلا للوطنيين الاسبان من قديم ، وفي أحضانها ، وعلى هضاب جبالها وفي كهوفها ومغاورها امتزج القوط بالاسبان وكونوا عنصرا واحدا واختاروا بلابو زعبا لهم .

وفي تلك البقاع تكونت أمارتهم يحدها البحر من الشمال ، والجبال من الجنوب ، وفي سنة ٧١٨ م يذكر المؤرخون أن بلابو انتصر على المسلمين في موقعة دموية تسمى كوفادونجا « Covadonga » ويقدر هؤلاء المؤرخون من الاسبان اسم هذه الموقعة . مثلهم في ذلك مثل الاغريق في تقديسهم لموقعة « مارثون » إذ بانتصار بلابو المزعوم أنقذ إمارته الفتية من الدمار على أيدي العرب ، كما أنقذت مرثون بلاد الاغريق من الدماء على أيدي الفرس

بعث هذا الانتصار روح الأمل والمقاومة في نفوس الاسبان وعلموا أن الاتحاد والاقدام لهما ثمرتهما ، وأصبحت تلك المقاطعة من ذلك العهد مأوى يأوي إليه الحاقدون على حكم العرب والخارجون على طاعتهم ، وبعد كفاح طويل مات بلابو ٧٣٧ م ، ورفع المؤرخون من الاسبان إلى مقام القديسين والأولياء — وخلفه في زعامته ابنه فافيل ، ولما قتل بعد ذلك بعامين جلس على عرش الإمارة صهر له يسمى الفونسو الكاثوليكي إذا كان أليق النبلاء لشغل ذلك المنصب الخطير الشأن ، وقد استطاع بحزمه وحسن قيادته أن يوسع رقعة ملكه إذ ضم لأمارته معظم مقاطعة جليقية (البرتغال الحالية) ، وامتدت حدوده حتى وصلت نهر دويره ، وانتزع من العرب ليون وسلمنقة وزامورة واستورقة وغيرها من المدن التي تقع نحو الشمال الشرقي حتى وصل إلى مقاطعة قشتالة ، واستمر في فتوحاته مستردا البلاد والأقاليم من سيطرة العرب حتى قيل إنه استرد نحو ربع أسبانيا . وقد ساعده على ذلك اشتغال المسلمين إذ ذاك بحروبهم الداخلية . وتنازعهم الحكم

فيما بينهم ، ولكن العرب ما لبثوا أن سوو أمشا كلهم واستقامت الأمور في أسبانيا العربية عند ما أسس عبد الرحمن الداخل الأموي إمارة أموية عربية في أسبانيا وأصبحت تلك المدن والأقاليم ميدانا للقتال بين المسلمين ونصارى الأسبان طورا يستردها المسلمون وطورا يستولى عليها النصارى ، وفقدت أهميتها الاقتصادية والعمرانية بسبب تلك الحروب المتكررة ، وبسبب انتقال ملكيتها من يد عربية اسلامية إلى يد اسبانية نصرانية

مات القونسو الأول في سنة ٧٥٧ م ، وخلفه على العرش ابنه فرويلا وتبعه كثيرون من أبنائه وأصهاره يحكمون اسبانيا النصرانية التي كانت تارة تصمد للعرب في ميادين القتال وتحافظ على استقلالها ، وتارة تضعف أمامهم وتقر لهم بالتبعية وتدفع الجزية — وظلت سائرة على ذلك المنوال حتى النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي عند ما جلس على عرشها القونسو الثالث الذي يعده المؤرخون المومسس الثاني والحقيقي لاسانيا النصرانية. إذ في عهده (٨٦٦ — ٩١٠) م أصبح الأسبان أسياد الأقاليم الجبلية يحكمون على مقاطعات استورقه ، وبسكاي وجليقية وشمال البرتغال ومعظم بلاد النفار ، وقاتلوا المسلمين في أثناء تلك المدة قتالا عنيفا مما سنفصله ونحن نقتبع الاخبار السياسية والحربية لاسبانيا العربية الاسلامية